الفصل الثاني

ضوابط التعامل مع قضية الإعجاز العلمي في السنة النبوية المطهرة

تعرض شخص رسول الله ﷺ ـ ولا يزال يتعرض ـ لكثير من التهجّم والافتراء والسخرية والتطاول من عدد من أعداء الله، من الملاحدة والكفار والمشركين الذين لا يؤمنون بنبوته، ولا بالقرآن الكريم الذي أنزل إليه، وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ وهو أحكم القائلين، مخاطباً خاتم أنبيائه ورسله ﷺ ومؤيداً نبوته ورسالته والقرآن الذي أنزل، ومدافعاً عن شخصه الكريم بقوله العزيز:

- ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١١٩، ١٢٠].

- ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤].

- ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٣، ٣٤].

- ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [فاطر: ٤].

- ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [فاطر: ٢٥].

وللرد على هؤلاء المرجفين في زمن العلم والتقنية الذي نعيشه، أرى أن إثبات الإعجاز العلمي في أقوال رسول الله ﷺ هو من أبلغ الردود وأنسبها، وذلك لأن الغالبية الساحقة من الناس في هذا الزمن قد فتنوا بالعلم ومعطياته فتنة كبيرة، حتى أعماهم ذلك عن حقيقة رسالة الإنسان في هذه الحياة: عبداً لله تعالى يعبد ربه بما أمر، ومستخلفاً في الأرض من أجل عمارتها وإقامة عدل الله فيها، وعليه بعد ذلك الموت وحساب القبر ثم البعث والحساب والجزاء، ومنه الخلود في الآخرة إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً.

وانطلاقاً من غفلة إنسان اليوم عن حقيقة رسالته في الحياة الدنيا شاعت مذاهب الكفر والإلحاد والشرك والضلال بمختلف صورها وأشكالها ومبرراتها، وغرق الإنسان إلى آذانه في ماديات الحياة التي شغلته عن حقيقة رسالته على هذه الأرض، ومن ثم لم تعد الحوارات الدينية أو الفكرية المألوفة تجدي بين من يتسمون باسم مثقفي العصر ولذلك تنادوا كذباً بحتمية صراع الحضارات، وصدام الديانات، ونهاية التاريخ، في وقت تركزت أسباب الغلبة المادية بأيدي أكثر الناس بعداً عن التدين الصحيح.

وفي هذا العالم المضطرب الذي اختلت فيه كل الموازين ـ إلا ميزان العلوم المادية ـ أصبح **الدليل العلمي المادي** هو وسيلة الإقناع الرئيسة ـ إن لم تكن الوحيدة ـ المقبولة من الناس، ولعلم الله ﷻ بأن الإنسان سيصل في يوم من الأيام إلى هذه الحال أنزل في محكم كتابه أكثر من ألف آية قرآنية كريمة تتحدث عن السمٰوات والأرض وما بينهما، وعن مكونات كل منها وما بها من ظواهر ومخلوقات، وعن كيفية خلق كل ذلك ثم إفنائه واستبداله أو بعثه، كما أنطق الله ﷻ خاتم أنبيائه ورسله ﷺ بالعديد من تلك الحقائق الكونية الشاهدة له ـ في زمن العلم والتقنية الذي نعيشه ـ بالنبوة وبالرسالة، وبأنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كان موصولاً بالوحي ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض، لأنه لا يمكن لعاقل أن يتخيل مصدراً لهذا الكم الهائل من الحقائق العلمية في أحاديث رسول الله ﷺ غير الله الخالق ﷻ، خاصة وأن هذا الرسول الخاتم كان أمياً،

وبعث من قبل ألف وأربعمائة سنة في أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، وفي زمن لم يتوافر للإنسان شيء من العلوم المكتسبة يمكن أن يرقى إلى مستوى ما نطق به ﷺ من حق لم يتعرف الإنسان على شيء منه إلا قبل أقل من قرن واحد من الزمان، وبعد مجاهدات استغرقت آلافاً من العلماء والباحثين، مما يؤكد على أن هذا العلم النبوي لا يمكن أن يكون له من مصدر غير الله الخالق ﷻ.

وانطلاقاً من ذلك فإن الإشارات الكونية في كل من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة تبقى حجة على الناس كافة إلى يوم الدين بأن القرآن كلام الله، وأن سيدنا ونبينا محمداً هو خاتم أنبيائه ورسله ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ.

والمحاجة بالعلم لا تكون إلا بالحقائق القطعية الثابتة التي لا رجعة فيها، وذلك لأن المعارف المكتسبة في مجال العلوم البحتة تمر في عدد من المراحل المتتابعة من المشاهدة والملاحظة والاستنتاج والتي تؤدي إلى وضع عدد من الفروض والنظريات، أو من مراحل التجربة والملاحظة والاستنتاج، ثم بمزيد من تكرار التجارب وإعادتها وتدوين الملاحظات والاستنتاجات وتدقيقها وتمحيصها يمكن أن ترتقي هذه النظريات إلى مقام الحقيقة أو القانون، فإذا وصلت المعلومة المكتسبة إلى هذا المقام فإنها لا تنتكس ولا ترتد على أعقابها أبداً، وإن بقيت قابلة للتوسع والزيادة.

وفي التعامل مع قضية الإعجاز العلمي في كتاب الله أو في سنة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ لا بد من الالتزام بعدد من الضوابط الحاكمة للمتعاملين في هاتين القضيتين الهامتين.

وفي الباب السابق تعرضت لقضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم وضوابط التعامل معها، **وأوجز هنا ضوابط التعامل مع قضية الإعجاز العلمي في السنة النبوية المطهرة في النقاط التالية:**

(١) اختيار الأحاديث المحتوية على إشارات إلى الكون ومكوناته وظواهره،

وعمليات خلقه وإفنائه واستبداله، وإلى الإنسان وخلقه الأول ومراحله الجنينية، وإفنائه وبعثه، وإلى ضوابط سلوكه، وإلى ما أحل الله تعالى له وحرم عليه من المطعومات والمشروبات، وما أباح له من وسائل الوقاية من الأمراض والتداوي والعلاج.

(٢) معرفة درجة الحديث عند أهل العلم، واستبعاد كل الأحاديث التي ثبت بالدراسة المتأنية أنها موضوعة.

(٣) جمع الأحاديث الواردة في الموضوع الواحد، والروايات المتعددة للحديث الواحد، حتى يتضح المعنى المراد منها دون ترجيح حديث على آخر أو رواية على أخرى، لأن الجمع والتوفيق بين الأحاديث والروايات الصحيحة هو أولى من ترجيح أحدها على الآخر.

(٤) فهم النص أو النصوص النبوية الشريفة وفق دلالات الألفاظ في اللغة العربية ووفق قواعدها وأساليب التعبير فيها.

(٥) فهم النص النبوي الشريف في ضوء سياقه، وأسبابه، وملابساته، ومقاصده، وتحديد احتمال ارتباطه، بعلة معينة منصوص عليها في الحديث، أو مستنبطة منه، أو مفهومة من سياقه، والتمسك بروح السنة ومقاصدها قبل التمسك بحرفيتها.

(٦) فهم النص النبوي الشريف في نور القرآن الكريم لأن أحاديث رسول الله ﷺ شارحة لكتاب الله، ومبينة لدلالات آياته، ومن هنا فلا يمكن أن يكون بينهما شيء من التعارض، فإن بدا شيء من ذلك فإما أن يكون اللبس في فهم قارئ الحديث أو شارحه، أو أن يكون الحديث غير صحيح، وهنا لا بد من مراجعة سند الحديث.

(٧) لا يجوز للمسلم رد حديث صحيح لرسول الله ﷺ أبداً فإن فهمه عمل به، وإن لم يفهمه توقف عن الخوض فيه خشية انغلاق معنى الحديث على قارئه انغلاقاً مؤقتاً أو دائماً. كذلك لا يجوز رفض الحديث النبوي الشريف الذي

يشير إلى حقيقة علمية ثابتة لمجرد وجود ضعف في سنده لأن الحق العلمي يمكن أن يجبر ضعف السند.

(٨) ضرورة التفريق بين الحقيقة والمجاز في فهم نص الحديث النبوي الشريف، على ألا يخرج دارس الحديث باللفظ النبوي من الحقيقة إلى المجاز إلا بقرينة كافية وعند الضرورة القصوى. ومن هنا **فإنه لا يمكن إثبات الإعجاز العلمي للحديث النبوي الشريف بتأويل النص**، وذلك لأن التأويل ـ بصفة عامة ـ إن كان بغير مسوغ مقبول هو من الأمور المرفوضة تماماً في التعامل مع أحاديث رسول الله ﷺ، كذلك فإن حمل المجاز على الحقيقة مع وجود المانع العقلي أو الشرعي أو العلمي هو من الأمور المرفوضة كذلك، علماً بأنه لا يمكن أن يكون هناك تعارض بين صحيح المنقول وصريح المعقول.

(٩) عدم التكلف أو ليِّ أعناق الأحاديث من أجل موافقتها للحقيقة العلمية، لأن أحاديث رسول الله ﷺ أعز علينا وأكرم من كل المعارف المكتسبة.

(١٠) عدم الدخول في التفاصيل العلمية الدقيقة التي لا تخدم قضية الإعجاز العلمي في الحديث النبوي الشريف، والاكتفاء من ذلك بالقدر اللازم لإثبات وجه الإعجاز العلمي.

(١١) عدم الخوض في القضايا الغيبية غيبة مطلقة من مثل: الذات الإلهية، الروح، الملائكة، الجن، العرش، الكرسي، اللوح، القلم، حياة البرزخ، البعث، الحشر، أهوال يوم القيامة، الحساب، الميزان، الصراط، الجنة ونعيمها، والنار وعذابها، وذلك لأن عالم الغيب له من السنن والقوانين ما يغاير سنن وقوانين عالم الشهادة، وعلى ذلك فإن القياس بين العالمين قياس باطل، ومغالطة كبيرة، ومن هنا وجب التسليم بما جاء عن عالم الغيب في كتاب الله وفي سنة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ دون محاولة تفسير ذلك في حدود المعارف العلمية المكتسبة.

(١٢) الاقتصار على توظيف الحقائق العلمية الثابتة في الاستشهاد على الإعجاز

العلمي في الحديث النبوي الشريف، وذلك في جميع الإشارات العلمية الواردة في أحاديث رسول الله ﷺ فيما عدا قضايا الخلق والإفناء والبعث لكل من الكون والحياة والإنسان، وهي من القضايا التي لا يمكن للعلوم المكتسبة أن تتجاوز فيها حدود وضع نظرية من النظريات. وهنا تتعدد النظريات بتعدد خلفية واضعيها وإن بقيت المشاهدات واحدة، ويبقى للمسلم نور من الله ـ تعالى ـ في آية قرآنية كريمة أو في حديث نبوي صحيح مرفوع إلى رسول الله ﷺ يمكن أن يعينه على الارتقاء بإحدى هذه النظريات إلى مقام الحقيقة لمجرد وجود إشارة لها في كتاب الله أو في أحاديث خاتم أنبيائه ورسله ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ حيث يتم الانتصار للعلم وتصويب مساره بكلام الخالق ﷻ أو بأقوال سيد المرسلين ﷺ.

وهنا لا بد من التأكيد على أن العلوم المكتسبة إذا وصلت إلى مستوى الحقيقة أو القانون فإنها لا تنتكس على أعقابها أبداً ولكنها تبقى قابلة للزيادة مع الزمن، وذلك لأن حقائق العلوم المكتسبة هي جزئية في طبيعتها، وفي القوانين الحاكمة لها، لأنها تعبر عن عدد من القضايا الجزئية المحددة بحدود قدرات الإنسان الحسية والعقلية، ومن طبيعة الحقائق الجزئية أنها تنمو نمواً مطرداً مع الزمن ـ دون تناقص أو إلغاء ـ فتزداد وضوحاً وجلاءً مع استمرار مجاهدة العلماء في توضيح ما سبق الوصول إليه من حقائق هذا الوجود.

وفي التأكيد على جزئية المعرفة الإنسانية يقول ربنا ـ تبارك وتعالى: ـ ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

ويقول ـ عز من قائل: ـ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

(١٣) ضرورة التمييز بين محقق الدلالة العلمية للحديث النبوي الشريف والناقل لتلك الدلالة، مع مراعاة التخصص الدقيق في جميع مراحل إثبات وجه الإعجاز العلمي أو ما يعرف باسم: «**التحقيق العلمي للنص النبوي الشريف**»،

وذلك لأن المعارف العلمية قد توسعت اليوم توسعاً مذهلاً مما اضطر العلماء إلى المبالغة في تحديد مساحة التخصص دقة وعمقاً، وعلى ذلك فلا يجوز أن يخوض كل خائض في تحقيق قضية الإعجاز العلمي في كتاب الله أو في سنة خاتم أنبيائه ورسله احتراماً لهذين المصدرين من مصادر التشريع الإلٰهي المحفوظين في نفس لغة الوحي بهما (اللغة العربية) على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، واللذين تعهد الله ـ تعالى ـ بحفظهما تعهداً مطلقاً حتى يبقيا شاهدين على جميع الخلق إلى قيام الساعة.

فالتحقيق العلمي لا بد أن يجرى على أيدى المتخصصين، وإذا نقل ذلك أحد الرواة فلا بد من رد كل قضية إلى محققها من المتخصصين بوضوح وإثبات كاملين إنصافاً لمحقق الأصلي للقضية وسنداً للناقل لها رواية عنه، وعلماؤنا الأوائل قد علموا الإنسانية فن الإسناد ولا يجوز لمسلم اليوم أن يتجاهله أو أن يغمط عالماً من العلماء حقه في ذلك.

(١٤) التأكيد على أن ما يتوصل إليه محقق علمي في فهم الدلالة لأية إشارة علمية في حديث نبوي شريف ليس منتهى الفهم له، وذلك لأن الرسول الخاتم ﷺ قد أوتي جوامع الكلم.

(١٥) التسليم بأن النص النبوي الشريف وإن جاء في مقام التشبيه أو المجاز أو ضرب المثل فإنه يبقى صحيحاً من الناحية العلمية في لفظه ومعناه صحة مطلقة وإن لم تكن الحقيقة العلمية مقصودة لذاتها لأنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كان موصولاً بالوحي ومعلماً من قبل خالق السمٰوات والأرض: ـ

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٣ ـ ٥].

(١٦) ضرورة التفريق بين قضيتي التفسير العلمي والإعجاز العلمي للنص النبوي الشريف. وذلك لأن التفسير هو محاولة بشرية لحسن فهم دلالة الحديث، إن أصاب فيه المفسر فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد. والمعول عليه في ذلك هو قصده ونيته، والخطأ في تفسير الحديث النبوي الشريف يعود على

المفسر ولا ينسحب على جلال النص النبوي الصحيح. وهنا لا بد من التأكيد على أنه لا يمكن وقوع تعارض بين النصوص الموحى بها في كتاب الله أو على لسان خاتم أنبيائه ورسله، وبين الحقيقة العلمية الثابتة، فإن بدا للقارئ شيء من التعارض فعليه بسؤال أهل العلم، فقد تكون هناك حكمة خفيت على قارئ النص لأول وهلة، أو أن يكون هناك خلل في الفهم تجب معالجته قبل إصدار أحكام متعجلة على حديث من أحاديث رسول الله ﷺ كما يحدث كثيراً في زمن الفتن الذي نعيشه.

وهنا أيضاً قد يكون الجمع بين النصوص والروايات المتعددة في القضية الواحدة، ووضع كل منها في موضعه الصحيح وسيلة من وسائل تكامل الرؤية وإيضاح الصورة وتصحيح التفسير وتجنب الشطط فيه.

وفي التفسير العلمي للنص النبوي الشريف نحرص على توظيف الحقائق العلمية الثابتة، ولكن بما أن العلم لم يصل إلى الحقيقة في كل أمر من أمور الوجود فليس هناك حرج من توظيف النظرية العلمية المقبولة والسائدة في تحقيق التفسير العلمي للحديث النبوي الشريف حتى تصل المعرفة الإنسانية في هذا الأمر إلى مستوى الحقيقة.

أما الإعجاز العلمي للحديث النبوي الشريف فيقصد به إثبات سبق رسول الله ﷺ بالإشارة إلى حقيقة علمية قبل وصول العلوم المكتسبة لها بقرون عديدة. وهذا السبق العلمي من قبل ألف وأربعمائة سنة، وفي بيئة بدائية وزمن لم يكن ممكناً لأي من البشر الوصول إلى تلك الحقيقة عن طريق الاكتساب المعرفي لممَّا يقطع بأنه لا يمكن أن يكون لها من مصدر غير وحي السماء.

وانطلاقاً من هذا التعريف فإن موقف التحدي بالإعجاز العلمي هو موقف تحد للناس جميعاً ـ مسلمين وغير مسلمين ـ أن نبياً أمياً ﷺ بعث من قبل ألف وأربعمائة سنة، في أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين قد نطق بهذا الحق

الذي لم تصل إليه معارف الإنسان المكتسبة إلا منذ بضع عقود قليلة من السنين مما يثبت نبوته ورسالته وصلته بوحي السماء.

والمتحدي لا بد وأن يكون واقفاً على أرضية صلبة، ومن هنا فلا بد من الحرص على توظيف القطعي الثابت من الحقائق العلمية في إثبات الإعجاز العلمي لأحاديث رسول الله ﷺ في كل القضايا التي تعرض لها باستثناء الأحاديث المتعلقة بقضايا غيبية من مثل قضايا الخلق والإفناء والبعث لكل من الكون والحياة والإنسان كما سبق وأن وضحنا، وذلك لأن هذه القضايا لا تخضع للإدراك المباشر من الإنسان على الرغم من إلحاح كل من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة على تدبرها والتفكر فيها، ومعنى ذلك أنه على الرغم من أن هذه القضايا لم يشهدها أي منا، إلا أن الله ـ تعالى ـ قد أبقى لنا في صفحة السماء وفي صخور الأرض من الشواهد الحية ما يمكن أن يعين الإنسان ـ بحسه المحدود وقدرات عقله المحدودة ـ على الوصول إلى تصور ما عن خلق السمٰوات والأرض وخلق كل من الأحياء والإنسان.

وهنا تتعدد الرؤى وتكثر النظريات، وتتعارض الفلسفات بتعارض خلفية واضعيها من الإيمان والكفر، والتوحيد والشرك، والاستقامة، والانحراف، والجدية والهزل، وغير ذلك من المواقف البشرية، وهنا يظهر للمسلم ـ وللمسلم فقط ـ نور من الله ـ تعالى ـ في آية قرآنية كريمة أو في حديث نبوي صحيح مرفوع إلى رسول الله ﷺ يمكن أن يعين على الارتقاء بإحدى النظريات المطروحة إلى مقام الحقيقة لمجرد وجود إشارة لها في كتاب الله أو في سنة خاتم أنبيائه ورسله.

(١٧) عدم التقليل من جهود العلماء السابقين الذين اجتهدوا في تفسير أحاديث رسول الله ﷺ في حدود المعلومات العلمية التي كانت متاحة لهم في أزمنتهم، وذلك لأن من طبيعة المعارف العلمية أن تزداد اتساعاً وعمقاً مع مرور الزمن ما لم تنتكس الحضارات الإنسانية وترتد على أعقابها، أو تدمر بأمر من الله ـ تعالى ـ عقاباً لها على جرائمها، ومنها الإفساد في الأرض.

(١٨) الأخذ في الاعتبار أنه من الممكن الانطلاق من الحديث النبوي الشريف للوصول إلى حقيقة علمية لم يصل إليها أحد من قبل، ولو وعى المسلمون هذه الحقيقة لسبقوا غيرهم من الأمم في الوصول إلى العديد من حقائق العلم لوفرة الإشارات العلمية في كتاب الله، وفي سنة خاتم أنبيائه ورسله.

وعلى الرغم من تخلف المسلمين المعاصرين في مجالي العلوم والتقنية، إلا أن الباب لا يزال مفتوحاً أمامهم للانطلاق من آية قرآنية كريمة أو من حديث نبوي شريف من أجل الوصول إلى ما لم يسبقهم إليه غيرهم من حقائق الوجود.

(١٩) يجب تحري الدقة المتناهية في التعامل مع أحاديث رسول الله ﷺ وإخلاص النية لله في ذلك، والتجرد من كل هوى نفسي وغاية شخصية أو مكاسب مادية حتى يبارك في العمل ويكون خالصاً لوجه الله ـ تعالى ـ.